

نحو منهج علمي لإحياء التراث

الإسلامي الجزائري

د. كمال لدرع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم

توطئة:

التراث ثمرة العقل المسلم ونتاج الأجيال السابقة وهو يعبر عن شخصية الأمة وحضارتها وثقافتها. وأقصد بالتراث هنا التراث الإسلامي في مجال العلوم الإسلامية، أي الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي¹ الذي أنتجه المجتمع الإسلامي؛ ويتمثل فيما تركه العلماء في مختلف صنوف العلم والمعرفة، وبمعنى أخص ما تركه علماء الجزائر من مؤلفات ومصنفات ومخطوطات في شتى المجالات الفقهية والأصولية والطبية والفلكية وغيرها، وأطلقنا عليه التراث الإسلامي لأنه نابع من تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه ومبادئه، وهو تراث يعبر عن فكر هذا المجتمع وقيمه وحضارته.

والمعلوم أن ما خلفه علماء الجزائر من المؤلفات والمخطوطات يعد بالآلاف، والكثير منها قابع في الزوايا والمساجد والبيوت الخاصة، وهي تحتاج إلى من ينفذ عنها الغبار، ويبعث فيها الحياة من جديد بالدراسة والتحقيق والطبع.

مسؤوليتنا نحو التراث الإسلامي الجزائري:

نحن ورثنا تراثا ضخما عن أسلافنا صانعي الحضارة الإسلامية، ومؤسسي الثقافة الإسلامية، ولئن كان هذا التراث يكسبنا الشعور بالاعتزاز والافتخار، فإن هذا الشعور يحملنا المسؤولية، فيكون من الواجب علينا العناية

بالتراث وإخراجه إلى الوجود، دون الالتفات إلى الصيحات غير البريئة سواء كانت من أبناء جلدتنا أو من غيرنا التي تريد منا نبذ تراث أمتنا، وطرحه وراء ظهورنا.

إنه من الواجب علينا أن ننهض بمسؤولية نشر ما ورثناه من السابقين وتجليته وتحقيقه وطبعه ودراسته ونشره بين الناس، وتوجيه الباحثين إلى الاهتمام به، وبخاصة التراث الجزائري الذي هو عرضة للضياع والتلف.

وسيكون هذا العمل الذي يقوم به الباحثون في سبيل إحياء تراث علماء هذا البلد وذخائره أحسن ما يقدمونه إلى بلدهم خاصة وإلى أمتهم عامة.

واهتمامنا بالتراث الإسلامي الجزائري ليس من باب التمييز بينه وبين تراث المغرب العربي، أو تراث العالم الإسلامي، وإنما من باب إحياء تراث هذه المنطقة التي شهدت نوعا من القصور في الاهتمام به ودراسته والعناية به.

فالتراث الإسلامي الجزائري يمثل نتاج حضارة هذه الجهة من العالم الإسلامي في الفكر والعلم والفن والمعرفة، وهي جزء من نتاج حضارة العالم الإسلامي ككل.

والتراث الجزائري ينبغي دراسته في إطار أبعاده الزمانية والمكانية واللغوية، وهي أبعاد مترابطة متداخلة².

فمن الناحية الزمانية يضم التراث نتاج القرون منذ أن دخل الإسلام هذه البلاد، وما أعقب ذلك من نشاط علمي مختلف لعلمائها ومفكرها.

ومن الناحية المكانية فيشمل التراث كل ما أنتجه سكان الجزائر منذ الفتح الإسلامي.

ومن الناحية اللغوية فمعظم ما كتب من قبل المسلمين كان باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ولغة الإسلام، فكانت العلوم تدون باللغة العربية، وتدرس باللغة العربية.

فالتراث الإسلامي الجزائري المخطوط منه والمطبوع ضخيم ومتنوع،
يشتمل على الشؤون الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخ، كما هو غني بكتب
الطب والصيدلية والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والجغرافيا والفلاحة،
ولكل كتاب في هذه العلوم نصيب من الأهمية ويستحق الاهتمام والدراسة.

توظيف التراث في الدراسات الإسلامية والمعاصرة:

إن الكثير من الباحثين لم تتح لهم الفرصة أو الظروف للاتصال بما
تحتويه كتب التراث من صنوف المعرفة، أو هم يستنكفون عنه لصعوبة هذا
النوع من الدراسات، أو يعزفون عنه لكونه في نظر هؤلاء لم يعد له معنى، أو
فقد جدواه، أو لصعوبة هذا العمل.

إننا كمتجمع وكأمة وكعالم إسلامي نتعرض في حياتنا المعاصرة لكثير
من القضايا والمشكلات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية مثل البنوك
والتأمين ومستجدات الطب، والمعاملات المصرفية، وقضايا حقوق الإنسان،
والعلاقات الدولية وغيرها من القضايا، وكلها قضايا تحتاج إلى أبحاث
ودراسات وحلول شرعية وعلمية، ولعل في كتب التراث ما يفيد في استلهاهم
حلول لهذه القضايا، أو فيها ما يشبهها فيكون ذلك أساسا ومرتكزا للدراسة
والبحث، ولصياغة حلول للمشكلات المعاصرة.

ولعل أقرب مثال لذلك ما استجد في موضوع زراعة الأعضاء، كيف
اضطر الباحثون الشرعيون إلى الرجوع إلى كتب التراث لاستخلاص أحكام
وفتاوى متعلقة بهذه النازلة الطبية التي تحتاج إلى إجابة شرعية مؤصلة بنصوص
الشرع وقواعد الشريعة وأقوال العلماء القدامى من شتى المذاهب.

فعلينا أن نعترف أن الكثير من القضايا والمسائل ناقشها العلماء قديما
وتعبوا في تحرير مسائلها، وضبطوا أحكامها بمبادئ علمية وشرعية، فمثلا لم
يكن في الزمن الماضي بنوك إسلامية بالشكل التي عليه الآن، لكن وجدت في

الدولة الإسلامية آنذاك منشآت ومصارف إسلامية ما تقوم بوظيفة البنوك اليوم ومن هذه المنشآت الصيارف والأسواق وما يتعلق بها من شروط وأحكام³. ومن المؤسسات والمنشآت في عصر الدولة الإسلامية، والتي أنشئت لخدمة الحركة التجارية القياسر والخانات والفنادق والوكالات.

ومن القضايا أيضا التي يواجهها المسلمون في العصر الحالي قضية التشريع، وعلاقة ذلك بوضع الدساتير، ووضع قوانين وتشريعات، وكتب التراث ضمت الكثير من المسائل الاجتهادية في هذا الشأن لأئمة الإسلام، وكيف طبق المسلمون الأوائل أحكام الشريعة وحكموها في واقعهم المعيش.

فالتراث الإسلامي يمكن أن يكون ميدانا خصبا ومفتوحا للبحث الأكاديمي، يمكن أن تخصص له إمكانيات، ويتتدب له الباحثون وترعاه مخابر وتخصصات.

كما يمكن إنشاء مجلات أو دوريات متخصصة في تناول الأبحاث التراثية، والأنشطة المتعلقة بالتراث.

وقد وجدنا بعض الجامعات والمراكز في العالم الإسلامي قامت بهذا المجال، كمجلة التراث العربي بدمشق، ومجلة تاريخ العلوم العربية بحلب، ومجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ومجلة آفاق الثقافة والتراث لمركز جمعة الماجد بدولة الإمارات العربية المتحدة، فضلا عن دوريات ومجلات تابعة لمراكز أجنبية تعنى بالتراث العربي الإسلامي.

الدراسات الحديثة والتراث:

إن الدراسات الحديثة التي تناولت موضوعات قديمة متعلقة بالتراث سواء أكانت عربية أو أجنبية . على أهميتها . لا يمكن أن تلحق بالتراث، وإنما تكمن أهميتها في أنها أولا تعود بالفائدة على الباحث في تكوينه العلمي، ثم هي خدمة للتراث، ودراسة له، وعناية به.

لكن هذه الدراسات الحديثة قد تتأثر بالانتماء الذاتي للباحث أو اتجاهه الفكري، علماً أن هذه الدراسات الحديثة قام بها أيضاً أجنب من جنسيات أوروبية وغيرها، هي لا تعد تراثاً لا زماناً ولا مكاناً ولا لغة، والكثير منها تخدم أهدافاً تسيء إلى التراث ولا تخدمه⁴.

فالتراث هو عبارة عن نصوص كتبها علماء ومفكرون في زمن معين، ونهجوا منهجاً معيناً، ولهم انتماء ديني وعقدي معين، كما كتبوه بلغة محددة، لكن هذه الأعمال الحديثة التي كتبها مسلمون ومستشرقون لا تعد تراثاً ولا تكمل التراث، وإنما خادمة له، وكاشفة لأهميته، ومحققة له، ودارسة لموضوعاته المختلفة التي وردت في كتبه.

والدراسات الحديثة والمعاصرة التي تعنى بدراسة التراث وتحقيقه تكون مهمة إذا درست التراث بعقلية معاصرة تراعي مستجدات الواقع الراهن، كما تراعي في الوقت ذاته قيم التراث الحضارية، ولا تدرسه بعقلية تراثية⁵ منفصلة عن الحاضر، كما تدون هذه الدراسات الحديثة والمعاصرة مهمة إذا توخى الأمانة الدينية والأمانة العلمية، والأمانة المكانية، وتحافظ عليه، دون تحريف أو تغيير سواء بقصد أو بحسن نية أو بغير قصد.

وقد رأينا بعض الباحثين المسلمين في بعض الدول الإسلامية يقومون بتغيير بعض الكلمات أو العبارات الواردة في كتب التراث لأنها في نظرهم تمس بالعقيدة أو لا تتماشى ومذهبهم الفقهي أو اتجاههم الفكري. فأي تغيير أو تحريف هو إساءة للتراث، فلا بد من الإبقاء على النص التراثي كما هو⁶.

ولنا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فحينما خشي النبي صلى الله عليه وسلم أن يختلط النص القرآني بأحاديث وأقواله التي يكتبها الصحابة رضي الله عنهم نهى صراحة عن كتابة شيء سوى القرآن، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَكْتُبُوا

الدولة الإسلامية آنذاك منشآت ومصارف إسلامية ما تقوم بوظيفة البنوك اليوم ومن هذه المنشآت الصيارف والأسواق وما يتعلق بها من شروط وأحكام³. ومن المؤسسات والمنشآت في عصر الدولة الإسلامية، والتي أنشئت لخدمة الحركة التجارية القياسر والخانات والفنادق والوكالات.

ومن القضايا أيضا التي يواجهها المسلمون في العصر الحالي قضية التشريع، وعلاقة ذلك بوضع الدساتير، ووضع قوانين وتشريعات، وكتب التراث ضمت الكثير من المسائل الاجتهادية في هذا الشأن لأئمة الإسلام، وكيف طبق المسلمون الأوائل أحكام الشريعة وحكموها في واقعهم المعيش.

فالتراث الإسلامي يمكن أن يكون ميدانا خصبا ومفتوحا للبحث الأكاديمي، يمكن أن تخصص له إمكانيات، ويتتدب له الباحثون وترعاه مخابر وتخصصات.

كما يمكن إنشاء مجلات أو دوريات متخصصة في تناول الأبحاث التراثية، والأنشطة المتعلقة بالتراث.

وقد وجدنا بعض الجامعات والمراكز في العالم الإسلامي قامت بهذا المجال، كمجلة التراث العربي بدمشق، ومجلة تاريخ العلوم العربية بحلب، ومجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ومجلة آفاق الثقافة والتراث لمركز جمعة الماجد بدولة الإمارات العربية المتحدة، فضلا عن دوريات ومجلات تابعة لمراكز أجنبية تعنى بالتراث العربي الإسلامي.

الدراسات الحديثة والتراث:

إن الدراسات الحديثة التي تناولت موضوعات قديمة متعلقة بالتراث سواء أكانت عربية أو أجنبية . على أهميتها . لا يمكن أن تلحق بالتراث، وإنما تكمن أهميتها في أنها أولا تعود بالفائدة على الباحث في تكوينه العلمي، ثم هي خدمة للتراث، ودراسة له، وعناية به.

عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ
قَالَ هَمَامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ⁷.

وقد يقوم بعض الدارسين عند دراسة وتحقيق التراث إكمال بعض العبارات، ويعطي لنفسه حرية التصرف فيما بعد، فيتعرض النص الأصلي للتغيير، وهذا منهج غير سليم، فلا بد من الإبقاء على النص الأصلي، ثم الإشارة في الهامش إلى ما وقع للنص من نقص أو بتر ونحو ذلك.

فلا بد من التمييز بين النص والشرح والدراسة والتعليق ونحو ذلك؛ فالنص التراثي هو قول المؤلف يكتب ويذكر كما وردت عبارته، ثم يميز عن الشرح والتفسير والإيضاح والتعليق⁸.

المنهج العلمي في المحافظة على التراث الإسلامي الجزائري وإحيائه:
1 . تصنيف علوم التراث:

قديمًا قسم وصنف المسلمون العلوم التي يبحثون فيها إلى تقسيمات مختلفة، فمنهم من قسم التراث تبعًا للمؤلفين كابن النديم الذي كان وراقًا، ومنهم من قسم العلوم صنفين: علوم الشريعة، وما يقترن بها من العلوم العربية، والثاني: العلوم العملية التي أطلق عليها علوم العجم كالخوارزمي.

أما ابن خلدون فقد قسم العلوم إلى علوم نقلية وعلوم عقلية، فالعلوم النقلية هي العلوم المرتبطة بالوحي، أي بالكتاب والسنة، والعقل ليس له فيها مجال إلا من حيث الفهم وإلحاق الفروع بالأصول. أم العلوم العقلية ويسميتها أيضًا الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه إلى موضوعاتها ومسائلها واتحاد براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقف نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، وتشمل العلم الطبيعي، والعلوم العددية والعلوم الهندسية والطب والفلاحة والكيمياء وغيرها. أي كل العلوم البحثية والتطبيقية وعلوم الفلسفة.

ويلاحظ أن المستشرقين اهتموا بترائنا بتصنيفه ودراسته، لكن هؤلاء عملهم لم يكن يخلو من هوى أو انحراف في الفكر. وهم يعملون وفق منهج علمي يتماشى مع اتجاههم الفكري والمذهبي. كما يسخرون الأموال ويقطعون المسافات، ويفنون العمر بين المخطوطات والآثار والمصنفات مطلعين منقبين، وربما عملوا على تحريف ترائنا وتزييفه، وهؤلاء من أخطر الجماعات علينا وعلى ترائنا⁹.

لذلك إذا أردنا أن نسدي خدمة لترائنا العلمي لأعلام بلادنا فعلينا أن نقوم أولاً بتصنيف ترائنا وفق منهج علمي، وذلك بأن نصنف هذا التراث وفق تصنيف العلوم، أي بين ما من علوم الشريعة، وبين ما هو من العلوم الأخرى التطبيقية العلمية والفلسفية. لنتقل إلى المرحلة الثانية وهي الجمع والإحصاء.

2. جمع وإحصاء كتب التراث الجزائري:

عندما نترجم لأعلام الجزائر الكثيرين نجد أنهم تركوا كتباً ومصنفات كثيرة، لكن الذي حقق منها وطبع قليل جداً، وبعضه يتعرض للضياع والتلف، وبعضه يحتفظ به الناس في بيوتهم، والبعض الآخر في الزوايا والمساجد حيث يفتقد لأدنى شروط الحفظ، والبعض الآخر نجهل مكان وجوده، والبعض الآخر موجود في مكتبات وخزانات ومتاحف أجنبية... وأمام هذا الوضع فلا بد من عمل جاد لجمع هذا التراث وفهرسته وحفظه، وتحديد أماكن وجوده.

فالكتب التي دونها القدامى تعد بالآلاف منذ قيام الدول الإسلامية في منطقة المغرب العربي إلى العهد الاستعماري، ورغم ما تعرضت له المخطوطات من إتلاف وحرق وضياع ونهب من قبل المستعمر، أو من قبل الصراعات المذهبية والطائفية من قبل¹⁰، فلا يزال الكثير منها محفوظاً، وبعضه قد طبع دون تحقيق حيث يحتاج إلى تحقيق، وبعضه طبع محققاً.

والاعتناء بالكتب وجمعها وحفظها عمل اشتهر به المسلمون الأوائل، حيث قام الخلفاء والأمراء بإنشاء مكتبات عامة، كبيت الحكمة ببغداد، ودار

العلم في القاهرة، وخزانة الكتب لسيف الدولة بحلب ومكتبة المستنصر بالله بقرطبة، وغيرها، بل كانت تنشأ مكتبة بكل جامع كبير، وكان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع¹¹.

كما قام الخلفاء بمنح مكافئات للنساخ والوراقين باستنساخ الكتب القيمة النادرة، وحفظها في المكتبات العامة، ونشأت لذلك وراقات تعنى بنسخ الكتب بمثابة دور الطباعة والنشر اليوم.

لذلك يستوجب علينا العمل أولاً القيام بإحصاء وجمع كل كتب التراث في شتى مجالات وصنوف المعرفة، وحتى الذي لا يمكن جمعه علينا أن نحدد مكان تواجده إما داخل الوطن، أو في أي دولة أجنبية، أو عن طريق تصويره. ويمكن الاستعانة في هذا المجال بفهارس الكتب المنشورة وغير المنشورة التي وضعت للتنبيه على الكتب المطبوعة وغير المطبوعة، كما يمكن الاستعانة بكتب التراجم والأعلام، كمعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، والإعلام لخير الدين الزركلي وغيرهما.

3. فهرسة التراث وتحليله:

لعل من أخص واجبات الباحثين والدارسين على مستوى المؤسسات الجامعية، وبخاصة تجاه التراث الفقهي والأصولي والشرعي، ثم التراث الأدبي واللغوي وغيره هو العمل على فهرسة هذه الكتب، وتحليل ما جاء فيها وإعادة صياغة محتواها بطريقة ميسرة للبحث فيها، والكشف عن جزئياتها الكثيرة ومحتوياتها.

إن الفهرسة أو ذكر الكتب ومؤلفيها يمثل أساساً في وضع تاريخ العلوم، فتاريخ العلوم قائم على دراسة تطور العلم منذ نشأته إلى فترة تسجيله، وما الفهرسة إلا الطريق الرئيسي أو اللبنة الأساسية في هذا العلم. وقد ظهر فن الفهرسة قبل الإسلام، فمكتبة عالمية مثل مكتبة الإسكندرية كانت تحوي بيلوغرافيا أو فهارس بما تحويه من كتب في كل علم.

ولما جاء المسلمون وطوروا هذا العلم أو هذا الفن والأسلوب، وصار نموذجاً رائداً متبعاً من قبل الغير فيما بعد، فجاء الفرابي والخوارزمي وابن النديم وغيرهم فقاموا بتطوير علم الفهرسة والتصنيف.

فظهرت فهارس كثيرة أسهمت في حفظ أسماء الكتب لتكون في متناول الباحثين، وسجل لنا ابن النديم في أشهر فهرست فهرسه، حيث بين فيه الكتب والعلماء الذين صنفوها. وهو نفسه أشاد بملوك الفرس الذين اعتنوا بالفهرسة وخصصوا أماكن خاصة لحفظ الكتب¹².

والتراث العلمي الجزائري خاصة غني في الكيفية والكمية، غني في الموضوع والعدد، رائد في عدد مؤلفاته وأصنافها، وهذه الميزة نجمت عن التطور السريع الذي تميز به المجتمع الإسلامي بدافع العقيدة وأداء رسالة الإسلام الذي استجاب لنداء الوحي إقرأ؛ فألفوا كتباً كثيرة في مختلف صنوف المعرفة والعلم.

فنتيجة التطور والتقدم في العلوم صار البحث يعتمد على فهارس أي قوائم بيبليوغرافيا، معدة بشكل عام، وفي كل موضوع بشكل خاص، حتى يتمكن الباحثون من الوقوف على الكتب والمخطوطات التي تفيد في موضوع البحث.

فالحاجة ماسة إلى كتب الفهارس باعتبارها مفتاح البحث والدراسة، وإذا كان المسلمون الأوائل قد أولوها اهتماماً كبيراً، وما توصلوا إليه من تصنيف العلوم وكتبها ومصنفاتها، ولولا فهرستهم العلمية للكتب لضاعت الكثير من أسماء كتب تراثنا وأوصافها والتعريف بها وبأصحابها، فعلى أن نوظف الفهرسة في المحافظة على تراثنا وتمكين الباحثين من التعرف عليه، ثم دراسته وتحقيقه من خلال التعارف عليه عن طريق الفهرسة.

4. تحقيق المخطوطات:

والتحقيق عمل علمي أصيل في الأمة الإسلامية، يقوم به الباحثون والدارسون والمؤسسات والمراكز العلمية، وخاصة الجامعية منها.

ومعنى التحقيق هو الاجتهاد في جعل النصوص مطابقة لحقيقتها في النشر كما وضعها صاحبها ومؤلفها من حيث الخط واللفظ والمعنى. أو هو إخراج الكتاب مطابقاً لأصل المؤلف أو الأصل الصحيح الموثوق منه.

فالتحقيق علم يبحث أو يدرس قواعد نشر المخطوطات. وهو يؤدي إلى إحياء التراث وإخراجه إلى النور. أما الإحياء عمل أكثر من مجرد التحقيق، فهو يشمل صور شتى من نسخ أو طبع ونشر، أو تفسير أو تلخيص أو نقد أو تعليق. فالتحقيق والإحياء يعتمدان على البحث على النسخ لكتاب واحد حتى يمكن فحصه وتصحيحه لتكون فيما بعد أصلاً.

وقد عمل المسلمون من قبل على إحياء الكتب الأجنبية بالتحقيق والترجمة ككتب الإغريق وغيرها، واستفادوا منها. والغرب لما أراد أن يتطور وأن ينهض اعتمد أولاً على دراسة التراث الإسلامي بالدرجة الأولى، والتراث اليوناني الذي كان للمسلمين الفضل في إحيائه والمحافظة عليه. ولأن المخطوطات الإسلامية كانت أغنى فلقد سارع الغرب إلى تحقيقها ودراستها وترجمتها ونقلها إلى لغاتهم.

ولقد كان المستشرقون الرواد الأوائل في مجال تحقيق التراث حين عكفوا على إخراج كنوز التراث العربي الإسلامي في المجالات المختلفة في الدين والأدب والمعرفة، وحققوها تحقيقاً علمياً، ولكن عملهم في معظمه خدمة لأغراض ونوايا سيئة، ولتزييف الحقائق، ثم بعد ذلك وظف لأغراض استعمارية.

ولقد بذل الباحثون المسلمون في العصر الحديث جهوداً كبيرة وشاقة من أجل تحقيق بعض التراث، واستطاعوا أن يتصدوا لهؤلاء المستشرقين، والكشف عن زيف الكثير من آرائهم، ووضع الحقائق في نصابها السليم بالتفسير والتعليق في التحقيق. ورغم هذا الجهد من قبل هؤلاء الباحثون المسلمون والذي يتزايد

في كل مرة، فإن أعدادا ضخمة من هذا التراث المخطوط لا تزال تقبع في
خزانات الكتب والزوايا والبيوت الخاصة، وهي عرضة لعوامل التلف¹³.

إن المجتمع الجزائري كأى مجتمع إسلامي له عمق وامتداد حضاري،
بما له من دراسات وأعمال دينية وأخلاقية وحضارية وثقافية وعلمية واقتصادية،
أي في شتى التخصصات التي تعبر عن مقومات الحياة لهذا المجتمع. هذه
المقومات سجلت جميعها في كتب ومصنفات بذل فيها العلماء والكاتبون
والمحققون والناسخون جهدا كبيرا.

وعليه فإنه من الواجب علينا في بلادنا العمل على تحقيق هذا التراث
المخطوط وإخراجه إلى النور، وتحقيقه، وطبعه، حتى يكون متداولاً بين
الدارسين والباحثين، فينتفع منه المجتمع.

ولعل أولاً من يقع على عاتقها مسؤولية هذا العمل العلمي النبيل
المؤسسات الجامعية عبر مخابرها ومشاريع بحثها، وعبر الدراسات الأكاديمية
بتوجيه الباحثين والطلبة على مستوى ما بعد التدرج للاهتمام بمجال التحقيق.

كما يمكن للجامعات جمع المخطوطات وتخصيص مكاتب خاصة بها
كفروع من مكباتها العامة، ووضع لها فهارس مصنفة حسب التخصصات حتى
يسهل الرجوع إليها، وتصويرها وتمكين الباحثين منها.

فتحقيق التراث هو مسؤولية يشترك فيها الجميع كل حسب تخصصه
وإمكاناته، وهي أمانة ومهمة علمية وخدمة لماضي المجتمع وحاضره
ومستقبله.

وهذا العمل ضروري لتطور المجتمع ونهضته، وهو لا يمكن له أن يسير
إلى الأمام بقدم راسخة وثابتة إلا إذا وعى هذا المجتمع جذوره وقيمه في تراثه،
ثم ربط ذلك بحاضره ليتطلع إلى المستقبل¹⁴.

طبيعة إحياء التراث وتحقيقه:

إن إحياء التراث وتحقيقه عبر طبع ونشر المخطوطات ودراستها قد لا يكون بنشر كل المخطوطات التي تركها الأولون لوجود عوامل تحول دون ذلك، وإنما المطلوب . لتحقيق هذه الغاية . هو أن تضم مكتبة مطبوعاتنا الأعمال الفكرية التي تمثل المعالم والقسمات الرئيسية للتراث، بمعنى أن نصل من عملية التحقيق والنشر والإحياء لنصوص التراث إلى القدر الذي تصبح فيه الأعمال الفكرية المنجزة من تراث مجتمعنا تعبر بشكل صادق وكاف عن القسمات الأساسية للتيارات الفكرية والمقومات والمبادئ والقيم والمعارف التي حفل بها تراثنا فتكون بين يدي الباحثين والمفكرين وطلبة العلم.¹⁵

فإحياء التراث ليس نكسة ولا تعصبا ولا عودة أو هروبا إلى الماضي¹⁶، وإنما من موقع إدراك أهمية إحيائه باعتباره . بتنوعه وتعددته . الخلفية الفكرية والعلمية لمجتمع يريد أن ينهض.

لذلك فإن الدعوة إلى إحياء التراث ليس تخلفا، وإنما عودة إلى الأصالة أو إلى المخزون الحضاري والثقافي للأمة، يقول توينبي: "إن أي انفصال يحدث بين واقع حضارة ما وبين جذورها التاريخية ووحدتها العضوية، سيؤول بها حتما إلى الضعف والسكون والعجز عن استجاشة طاقاتها الخلاقة لمجابهة التحديات المتزايدة وهكذا تجد نفسها . وقد أصابها الشلل . تنساق نحو التدهور والسقوط".

فالاهتمام بالتراث تحقيقا وإحياء ودراسة ليس غرضه العودة بحياتنا وفكرنا إلى العصور التي أنتج فيها هذا التراث، لأنه لا يمكن لنا أن نعيش زمانا غير زماننا، ولكن أن نستلهم من عصر أسلافنا وتراثهم القيم الحضارية، ثقافية كانت أو اجتماعية أو سياسية واقتصادية، والاستعانة بعناصرها الجوهرية التي تمدنا صلاحيات البقاء والتفاعل مع واقعنا الراهن كي نضيف طاقة ودعم وقيم إلى ما عندنا في معركة التقدم.

فهذا التراث لو تمت معالجته باهتمام وموضوعية ومنهجية علمية سليمة¹⁷، ولو أحسن إحياءه وتقديمه وعرضه ودراسته والاستفادة منه لأمكنه أن يتحول إلى زاد يبلور للأمة شخصيتها المتحدة والمتميزة، عوض أن يبقى عرضة للتلف والضياع، فيضيع إبداع وإنتاج من سبقنا¹⁸.

لذلك وجب علينا طبع الأعمال الكاملة لعلمائنا ومفكرينا في نسق جديد وعرض جديد، وفق قواعد المنهج العلمي في الترجمة للشخصية والبحث في فكرها.

إنه لو قمنا بنشر الأعمال الكاملة لأبرز مفكرينا وعلمائنا قديما وحتى حديثا لاستطعنا أن نقدم تجسيدا حيا وملموسا لعصور متعددة من حياتنا الفكرية. فالنشر لأعمالهم الكاملة والتبويب الموضوعي والتاريخي لهذه الأعمال، يحفظ لهؤلاء تراثهم ويفيد الدارسين والباحثين، بل ينبغي أن يشمل النشر كذلك الرسائل الصغيرة والمقالات المتناثرة والأجوبة على الأسئلة والخطب والأحاديث والأمالى وغيرها، بحيث تجمع وتدرس، لأنها تقدم مادة علمية للباحثين.

فالتراث طاقة وأداة للتقدم، لذا فإحياءه ليس فقط من باب أن يكون متناولا من قبل الباحثين، لكن من أجل أن يكون في متناول الجميع، وتيسير وصوله إلى عقل القارئ، وهو هدف من أهداف الإحياء.

ومما ييسر استيعاب كتب التراث إضافة إلى طبعه ونشره، هو قيام الباحثين بالتمهيد لكل نص قديم بدراسة عصرية تلقي الضوء على قضاياها وتحدد مكان النص من عصره فيما يتعلق بالموضوع الذي تناوله صاحبه، ومن خلال هذا التمهيد يستطيع المثقف المعاصر أن يلم بقضايا النص وأن يعيش في جوه.

إنه إذا خلت عملية التحقيق والنشر للنصوص من الدراسات المهمة، ومن بيان معاني المصطلحات الواردة فيها، ومن الترجمة للأعلام والتعريف

بهم، فإن عملية الإحياء والتحقيق لا تعدو أن تكون عملية ترميم للمخطوطات، لا عملا علميا مفيدا.

الخاتمة:

إن البحث عن التراث والبحث فيه لا يقل أهمية عن بحث علماء الآثار في التنقيب عنه، بل هو يحتاج إلى أهمية أكبر وأعمق، وذلك يتطلب صبرا وبذلا وتضحية ودقة ومتابعة ودراسة، وهو عمل يتولاه. لكي ينجح. رجال ذووا مواهب قادرة على البحث الدءوب المستمر.

والتراث الإسلامي الجزائري في العلوم الإسلامية يمكن أن يكون ميدانا واسعا ومفتوحا للبحث العلمي الأكاديمي الجاد، فتخصص له إمكانات، ويتخصص فيه باحثون، وترعاه مؤسسات ومخابر جامعية.

لذلك يكون من المقترحات في هذا المجال إنشاء مجلة أو دورية متخصصة تتناول الأبحاث التراثية، وتتابع الأنشطة العلمية المتعلقة بالتراث.

كما يمكن للمؤسسات الجامعية أن تنشئ مخابر علمية متخصصة في البحوث التراثية، وأن توجه البحث على مستوى ما بعد التدرج للاهتمام بالتراث، بتوجيه بحوث طلبة الدراسات العليا على مستوى الماجستير والدكتور لاختيار مواضيع ودراسات تتعلق بالتراث¹⁹.

الهوامش:

¹ - محمد عابد الجابري، التراث والحداثة-دراسات ومناقشات-، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة 1991م، الدار البيضاء، المغرب، ص:23.

² - حسين محمد سليمان، التراث العربي الإسلامي-دراسة تاريخية ومقارنة-، ط سنة 1407هـ/1987م، مطبوعات الشعب، ص:22.

³ - السيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، القاهرة، 1946م، ص:11.

⁴ - سليمان، التراث العربي الإسلامي، ص:41.

⁵ - الجابري، التراث والحداثة، ص:15.

- 6 - سليمان، التراث العربي الإسلامي، ص: 42.
- 7 - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرفائق، باب الثبوت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم الحديث: 5326.
- 8 - عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط4، سنة 1397هـ/1978م، القاهرة.
- 9 - سليمان، التراث العربي الإسلامي، ص: 120.
- 10 - محمود أحمد حسن المراغي، دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط سنة 1996م، ص: 10.
- 11 - - المراغي، دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، ص: 8-9.
- 12 - ابن النديم، الفهرست، ص: 334، 335.
- 13 - سليمان، التراث العربي الإسلامي، ص: 198.
- 14 - محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، دار قتيبة، ط2، سنة 1408هـ/1988م، ص: 11.
- 15 - محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، ص: 25.
- 16 - الجابري، التراث والحداثة، ص: 15.
- 17 - الجابري، التراث والحداثة، ص: 42، 47.
- 18 - محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، ص: 25.
- 19 - قام قسم الفقه وأصوله بكلية أصول الدين والشرعية والحضارة الإسلامية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، الجزائر بإنشاء تخصص دقيق في مرحلة الماجستير. كمبادرة في هذا المجال. يتعلق بالفقه المالكي وأصوله خدمة للتراث المالكي في الجزائر خصوصا ومنطقة المغرب العربي عموما.